

1

الفصل الأول

أولاً : ماهية الحروب الصليبية

ثانياً : عوامل قيامها

أ- العامل الديني

ب- العامل الاقتصادي

ج- العامل الاجتماعي

د- العامل السياسي والعسكري

ثالثاً : أوضاع أوروبا الدينية والسياسية

والاقتصادية عشية قيام الحروب

الصليبية

رابعاً : أوضاع المشرق الإسلامي قبيل الغزو

الصليبي

أولاً : ماهية الحروب الصليبية

تعددت الآراء حول تعريف الحروب الصليبية ، ويرجع سبب ذلك الى تنوع الزاوية التي نظر منها المؤرخون الغربيون والشرقيون إليها على حد سواء فاختلفت تصوراتهم عنها ، فرأى بعض المؤرخين وعلى رأسهم المؤرخ الفرنسي الشهير كروسيه إن الحروب الصليبية تمثل فصلاً من فصول الصراع الأزلي بين الشرق والغرب ، وهو الصراع التقليدي الذي ظهر بوضوح في الصراع الفارسي – اليوناني ، وبعدها بين الفرس والامبراطورية الرومانية والبيزنطية ، ويمكن تفسير أسباب هذا الصراع وربطه بالعامل الحضاري كونه صراعاً بين حضارتين مختلفتين وليس الى عوامل دينية ، إذ أن هذا الصراع نشأ في وقت كان فيه الشرق والغرب يعتنقان الوثنية ، ورأى أصحاب هذا الرأي أن النزاع بين الشرق والغرب ظل كالبركان يهدأ حيناً ويثور حيناً آخر حتى بلغ أوجه في نهاية القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي ، ووجد منقسماً له في الحروب الصليبية وزاد من حدة الصراع الخلاف الديني بين الإسلام والمسيحية عند مجيء الإسلام⁽¹⁾ .

وذهب فريق ثاني وفي مقدمتهم المؤرخ البريطاني كنج ومن أيده في هذا الرأي الى أن الحروب الصليبية لم تكن في حقيقتها سوى الحلقة الأخيرة في سلسلة الهجرات الكبرى التي رافقت سقوط الامبراطورية الرومانية في الغرب الأوربي في سنة 476م ، وما أعقبها من موجات الهجرات التي تفاوتت في مداها واتجاهاتها المختلفة وأثرها ، فقد كان المجتمع في الغرب الأوربي يرى إن الامبراطورية هي الدعامة الكبرى التي لا يمكن للعالم الحياة بدونها ، ومن هنا كان مبلغ الفزع الكبير الذي انتاب غرب أوروبا بعد زوال الامبراطورية الرومانية المقدسة ، حتى أن البعض نادى بان ذلك يعني نهاية العالم فضلاً عن أن تدفق الهجرات داخل الامبراطورية ترتب عليه نشوء مجتمع جديد سادت فيه المسيحية ودعمه الجرمان بدماء جديدة وحيوية دافقة تركت أثرها في معظم الهجرات التي اتجهت الى بلاد عديدة أمثال انكلترا وصقلية وجنوب ايطاليا وشمال افريقيا⁽²⁾ .

وكانت الحروب الصليبية في نظر فريق ثالث من المؤرخين أمثال المؤرخ البريطاني البارز باركر ومن اتفق معه في هذا الرأي ، أنها كانت مجرد حركة ظهرت عقب حركة الإحياء الديني التي شهدتها أوروبا في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي ، والتي بلغت ذروتها في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي ، فقد وصلت الأخبار الى الغرب الأوربي عن سوء معاملة الحجاج المسيحيين بعد استيلاء السلاجقة

1- رنيه ، الحروب الصليبية – صراع الشرق والغرب، ترجمة: أحمد إيبش (دمشق:2002م)،ص18-17 ؛ ر. سي . سميل ، الحروب الصليبية ، ترجمة : سامي هاشم (بيروت:1982م)،ص17 .

Mohammed A. ,Hussein, “The Imperialistic Elements of the Crusades“, in (Speculum: 1981),Vol.1,P487-488 .

2- E. King , The Knights Hospitallers in The Holy Land (London:1931),P.15-12 . ستيفن رنسيمن ، تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة: السيد الباز العريني(بيروت:1967م)،ج1،ص19-18 ؛ سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية(القاهرة:1963م)،ج1،ص22-21.

على القدس سنة 463هـ/1071م وانطاكية سنة 478هـ/1085م ، وطرده البيزنطيين منها ، الأمر الذي جعل أوروبا تؤمن بضرورة استخدام القوة من أجل تأمين عملية الحج من أراضيها حتى الأراضي المقدسة فكانت الفكرة القيام بالحروب الصليبية⁽¹⁾ .

وعد فريق رابع من المؤرخين المختصين بالتاريخ الصليبي أمثال بانتر وكرام وعمران أن الحروب الصليبية هي الوسيلة التي اعتمدها الغرب الأوربي للتخلص من أمط العيش في العصور الوسطى والبدء بحياة أفضل في الشرق مقارنة بحياة البؤس والشقاء التي كان يعاني منها المجتمع الغربي الذي لم يكن باستطاعة الخروج من تلك الأوضاع السيئة وتحقيق تلك الأمانى حينذاك إلا عن طريق المشاركة في الحركة الصليبية تدعو لها البابوية وتبشر بها الكنيسة ، وبمعنى آخر أن الحروب الصليبية كانت فرصة ممتازة توفرت للجمع بين الخلاص في الدنيا والآخرة⁽²⁾ وبهذا الصدد قالت الباحثة البريطانية كارين أرمسترونغ ما نصه (في كتاب الحرب المقدسة الذي بين أيديكم حاولت أن ابين أن الحملات الصليبية لم تكن مجرد حركة هامشية في العصور الوسطى بل كانت حركة محورية بالنسبة للهوية الغربية التي كانت قيد التبلور في ذلك الحين وهي مستمرة إلى يومنا هذا ناهيك عن أنها أظهرت الدين في أشنع صورة)⁽³⁾ .

وفي تصوري المتواضع بعد هذا العرض الموجز لأبرز الآراء التي أوردتها المؤرخون الغربيون والشرقيون حول تعريف الحروب الصليبية أو ماهيتها يمكن القول بأنها حركة عدوانية ومغامرة كبرى ذات طابع حربي استعماري ظهرت في الغرب الأوربي في العصر الوسيط اعتمدت أسلوب العنف والهجوم المسلح ضد المسلمين في منطقة الشرق الأدنى الإسلامي، أفرزتها طبيعة الأوضاع الدينية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية والعسكرية السائدة في أوروبا الغربية في القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي ، واتخذت الدين شعاراً لها لغرض تحقيق أهدافها غير المشروعة في بلاد المسلمين خلال تلك الحقبة التاريخية في العصر الوسيط .

وهكذا أطلق اسم الحروب الصليبية على الحملات العسكرية التي قام بها الأوربيون في القرنين السادس والسابع الهجريين / الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين (669-490هـ/1270-1096م) ضد بلاد

1- أرنست، الحروب الصليبية، ترجمة : السيد الباز العريني، ط2(بيروت:1967م)، ص9 : رنسيان، «رحلات الحج الى فلسطين فيما قبل عام1095م»، ضمن كتاب تاريخ الحروب الصليبية للمحرر العام كينيث سيتون ، ترجمة: ترجمة وتعليق: محمد مؤنس عوض(عمان:2004م)، ج1، ص49-48 : صلاح المدني ، تاريخ العصور الوسطى الأوربية – الفترة الأولى بين نهاية القرن الرابع والقرن الحادي عشر الميلاديين(دمشق:1972م)، ص545 .

2- سيدني « أوروبا الغربية عشية الحروب الصليبية»، ضمن كتاب تاريخ الحروب الصليبية للمحرر العام كينيث سيتون ، ترجمة : وتعليق: سعيد عبد المحسن (عمان:2004م)، ج1، ص34-33 ؛ بول ، « الحروب الصليبية في غرب أوروبا في العصور الوسطى»، ضمن موسوعة تاريخ العالم ، تحرير : السيرجون أ. هامرتن، ترجمة : محمد مصطفى زيادة، ط2(القاهرة:1959م)، ج2، ص698 ؛ محمود سعيد ، تاريخ الحروب الصليبية1291-1095م(بيروت:1999م)، ص14-15 .

3- الحرب المقدسة – الحملات الصليبية وأثرها على العالم اليوم ، ترجمة: سامي الكعكي(بيروت:2005م)، ص11 .

المشرق الإسلامي⁽¹⁾ والتي تتناولها هذه الدراسة وبحث عن الأسباب والعوامل التي شجعت الغرب الأوربي للقدوم الى البلاد الجديدة وقطع آلاف الكيلومترات من أوروبا للوصول الى آسيا ، وما يهمنا هنا هو تقديم نبذة عنها وسير الحملة الصليبية الأولى حتى وصولها القدس كونها الهدف الرئيس للغزو الفرنجي نحو المشرق الإسلامي. علماً ان العديد من الدراسات الحديثة تطرقت الى الحروب الصليبية ودوافعها ونتائجها وبشكل مفصل⁽²⁾ .

ويلاحظ أن الأوربيين الذين غادروا بلادهم وشاركوا في الحملة الصليبية الأولى لم يستخدموا مصطلح الحملة الصليبية أو الصليبيين ، إذ لم يحدث سوى في القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي أن ظهرت الكلمة اللاتينية (Crusignati) ومعناها ”الموسوم بالصليب“ لكي تعبر عن الصليبيين ، لأنهم كانوا يخطون صلبان القماش على ستراتهم⁽³⁾ كما لم يؤشر القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي ، ظهور كلمة لاتينية تعني الحركة الصليبية وفي بداية الأمر كان من يشارك في الحملة الصليبية يوصفون بأنهم حجاج (Preregrini) وغالباً ما استخدمت عدة تعبيرات ومصطلحات أخرى مثل عبارة (Peregrinatio) ومعناها رحلة الحج التي كانت شائعة تماماً في الحقبة المبكرة تاريخ الحركة الصليبية ، كذلك استخدمت كلمة (Expeditio) التي يقصد بها الحملة وعبارة الرحلة الى الأرض المقدسة (Iter in terramsanctam) واصطلاح الحرب المقدسة (GuerreSaint) (أما بخصوص الكلمة الانكليزية(Crusade)والكلمة الألمانية (Kreuzzag) فقد ظهرت في حقبة زمنية متأخرة وتحديداً في القرن الثامن عشر الميلادي⁽⁴⁾ .

ومهما يكن من أمر فقد كانت الحركة الصليبية بمفهومها الشمولي ، حركة كبرى نبعت من الغرب الأوربي في العصور الوسطى اتسمت بطابعها الحربي الاستعماري ضد الدولة العربية الإسلامية ولاسيما في بلاد الشام بهدف امتلاكها ومستغلة استغاثة الحجاج النصارى ضد المسلمين كخطأً دينياً لتحقيق مآربها في الدولة العربية الإسلامية⁽⁵⁾ لذا عدت تلك الحركة انعطافاً خطيراً في تاريخ الغرب الأوربي ، وكان الهدف المعلن للحملة الصليبية الأولى هو الحج إلى الأراضي المقدسة في فلسطين وقتال المسلمين

1- نعيم فرح ، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى(دمشق:1977م)، ص 205 .

2- الباز العريني ، الشرق الأوسط والحروب الصليبية (القاهرة: 1963م) ، ج1 ؛ عبد القدر أحمد اليوسف ، علاقات بين الشرق والغرب بين القرنين الحادي عشر والخامس عشر(بيروت: 1969م) ؛ جوزيف نسيم يوسف ، العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الأولى ، ط3(بيروت:1981م) ؛ ميخائيل زابوروف، الصليبيون في الشرق ، ترجمة : الياس شاهين(موسكو:1986م) ؛ انتوني ويست ، الحروب الصليبية ، ترجمة : شكري محمود نديم(بغداد: 1967م) ؛ محمد سهيل طقوش ، تاريخ الحروب الصليبية – حروب الفرنجة في الشرق690-489هـ/1291-1096م(بيروت:2011م) .

3- والكلمة الانكليزية للحرب الصليبية هي Crusade والمشتقة من اللفظ الاسبانيCruzada وتعني علامة الصليب . ينظر: عمران، تاريخ الحروب،ص17 .

4- قاسم عبدة قاسم ، ماهية الحروب الصليبية(الكويت:1990م)،ص11-12 .

5- عاشور، الحركة الصليبية،ج1، ص 25 .

وانتزاع تلك الأماكن منهم . وجاء ذلك الهدف المعلن تلخيصاً للأيدولوجية الصليبية التي كانت تمثل الأرضية التي تحركت عليها الجماهير الأوروبية⁽¹⁾ نظراً لتأثير الحركة في جميع مجالات الحياة في أوروبا بسبب ارتباطها بشكل أو بآخر بالحياة الدينية التي كانت المحرك الأساس للحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية للمشاركة فيها⁽²⁾ .

ثانياً : عوامل قيامها:

هنالك مجموعة من العوامل المتداخلة والمعقدة التي أدت الى اندلاع الحروب الصليبية بين الشرق والغرب فوق الأراضي الإسلامية وهي كالآتي :

أ. العامل الديني⁽³⁾

يعد العامل الديني أول العوامل المهمة والمؤثرة التي أسهمت في قيام الحروب الصليبية كونه ظل لقرون عديدة يقدم المبرر المثالي لشن العدوان ضد المسلمين في أواخر القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي ولاسيما أن الحوليات الصليبية كثيراً ما أظهرت خلال المرحلة المبكرة من تاريخهم – على أنهم جند السيد المسيح "Militia Christi"⁽⁴⁾ وأنهم قدموا الى بلاد الشام من أجل القيام بالحج وغفران الذنوب⁽⁴⁾ واللافت للنظر أن العامل الديني ارتبط ارتباطاً وثيقاً بما يعرف بالحج "Peregrinator" الى الأرض المقدسة "Turrum sacrum" في فلسطين ، على الرغم من أن المسيحية لا تحتوي ضمن أركانها المعروفة في صورة التثليث، والتجسد والصلب والقيامة ، على فكرة الحج ، ومع ذلك شعر المسيحيون منذ وقت مبكر بالرغبة القوية في رؤية المواقع المرتبطة بذكرات المسيحية مثل الموضع الذي ولد فيه السيد المسيح (عليه السلام) والأماكن التي ارتادها في مختلف أنحاء فلسطين للتبشير بالدين الجديد، على أن المسيحيين ورثوا عن اليهود تقديراً كبيراً لمدينة القدس بحكم أنها مسرح الصلب حسب اعتقادهم الديني⁽⁵⁾ .

1- قاسم ، الخلفية الأيدولوجية للحروب الصليبية، ط3(القاهرة: 1988م)، ص 12 .

2- منى جمعة حماد ، « تطور الكتابة التاريخية عن الحروب الصليبية في الغرب الأوربي من القرن الثاني عشر وحتى القرن العشرين »، ضمن أعمال مؤتمر بلاد الشام في فترة الصراع الإسلامي الفرنجي(جامعة اليرموك ، الاردن:2000م)، ج1، ص 1 .

3- وللمزيد من التفاصيل حول العامل الديني ودوره في الحروب الصليبية . ينظر: الدراسة التي أعدها الباحث محمد صالح منصور، أثر العامل الديني في توجيه الحركة الصليبية (بني غازي:1996م)؛ عبدالله الربيعي « الدوافع الدينية للحركة الصليبية »، ضمن محاور ندوة الإطار التاريخي للحركة الصليبية ، اتحاد المؤرخين العرب(القاهرة: 1996م)، ص122-79 .

4- باركر، الحروب الصليبية ، ص 10-9 ؛ أرنولد توينبي ، مختصر دراسة التاريخ ، ترجمة : فؤاد شبل(بيروت: 1968م)، ج3، ص 347 ؛ محمد مؤنس عوض ، تاريخ الصليبيات – الصراع العالمي في العصور الوسطى (القاهرة:2011م)، ص 22 .

5- رنسيमान ، « رحلات الحج » ج1، ص 38 ؛ عوض ، تاريخ الصليبيات، ص 23 .

وقد استمر تصور الأمر من خلال هذا المجال حتى إن الكونت ريان عد الحروب الصليبية بأنها حروب دينية غرضها المباشر أو غير المباشر الاستيلاء على الأماكن المسيحية المقدسة في بلاد الشام⁽¹⁾ بعد إن أدعت القوى السياسية في أوروبا بسوء اوضاع المسيحيين في البلاد الإسلامية ، وسوء معاملة المسلمين للحجاج المسيحيين ، وكان ملوك أوروبا وأمراؤها قد أثاروا هذه الأمور الكاذبة ، إلا أن البابا أوربان الثاني(481-492Urban II) (1088-1099م) كان له الأثر الكبير في إثارة روح التعصب ضد المسلمين فضلاً عن الادعاء بضرورة انقاذ المسيحية من الإسلام في بلاد الشرق⁽²⁾ والغرض منها تحديداً الاستيلاء على الأماكن المقدسة في فلسطين وما يجاورها من المناطق الخاضعة للسيادة الاسلامية ولاسيما بعد أن رجحت كفة أوروبا المسيحية عندما أشرف القرن العاشر الميلادي على نهايته ، إذ أن الغرب الأوربي كان قبل تلك الحقبة يدافع عن نفسه لصد هجمات المسلمين⁽³⁾ وقد عد هذا الصراع ذروة الإحياء الديني الذي بدأ في الغرب الأوربي في نهاية القرن المذكور وارتفع شأنه في مع بداية القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي ، مما جعل بعض المؤرخين المحدثين يصفونها بأنها كانت(حروب مقدسة وطريق الحجاج الى كنيسة القيامة[قبر المسيح عليه السلام])⁽⁴⁾ وأن هذا الصراع لم يقتصر على المشرق العربي فحسب بل شمل اسبانيا وصقلية في جميع الحروب التي خاضها العالم المسيحي الغربي على حدوده دون اعتبار للمكان والزمان⁽⁵⁾ .

وأثبت التاريخ أن المسيحيين عاشوا دائماً في كنف الدولة الاسلامية عيشة هادئة تشهد عليها الرسالة التي بعثها ثيودوسيوس بطريرك بيت المقدس سنة256هـ/869م الى زميله إجناتيوس بطريرك القسطنطينية يمتدح فيها المسلمين ويثني على قلوبهم الرحيمة وتسامحهم المطلق ، حتى أنهم سمحوا للمسيحيين ببناء الكنائس دون أي تدخل في شؤونهم الخاصة ، وذكر البطريرك ثيودوسيوس بالحرف الواحد في رسالته قائلاً:(إن المسلمين قوم عادلون ، ونحن لا نلقى منهم أي أذى أو تعنت)، واذا كان هنالك ما يشير الى تعرض المسيحيين أحياناً في بعض البلدان الإسلامية لنوع من الضغط أو الاضطهاد فتلك حالات فردية شاذة عن القاعدة العامة التي حرص الإسلام دائماً عليها القائمة على التسامح المطلق مع أهل الكتاب⁽⁶⁾ .

1- Count Riant ,” Inventaire Critique des Letters Historiques des Croisades “ in A.O.L.,(Anne:1880),P. 2 .

2- حسان حلاق ، العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى ، ط2(بيروت :2012م)،ص170-169 .

3- وليم . ب . ستيفنسون ، « الحروب الصليبية روحها وأثرها »، ضمن موسوعة تاريخ العالم لهامرتن، ط8(القاهرة: د.ت)،ص5،182 ؛ Clud Cahen,“The Crusader “ in Encyclopedia of Islam “, (London:1965),,Vol,2,p.63 ؛ A. S . Atiya, The Crusader . , Commerce and Culture,(London:1962),p.20 .

4- باركر، الحروب الصليبية، ص9؛ توينبي ، مختصر،ج3، ص347؛ المدني ، تاريخ العصور ،ص550-549 .

5- فيليب حتي ، تاريخ العرب المطول(بيروت:1965م)،ج2، ص752؛ راغب حامد عبدالله البكر، الحروب الصليبية بدايات الاستعمار الأوربي (رسالة ماجستير غير منشورة مقدمة الى كلية الآداب/جامعة الموصل:1983م)، ص13-12 .

6- عاشور ، الحركة الصليبية،ج1، ص29 .

ومن جانب آخر قد تكون الحروب في الأندلس أثرت في قيام الحروب الصليبية بالشرق كونها جزء من العمل الأوربي المشترك لصد الإسلام ، إذ نجد لهذه الحملات صدى واسع لدى العامة في فرنسا التي كانت على تماس مع فكرة الحرب ضد المسلمين⁽¹⁾ والواضح أن هناك ارتباطاً ضمناً بين صد المسلمين والحملة الصليبية ، غير أن الحرب في الأندلس بتعاون البابوية⁽²⁾ لم تكن صليبية بالمعنى التقليدي ، وقد أصبحت في وقت لاحق مجال نشاط الفرسان الفرنسيين يعوضون بها عن الرحلة الشاقة الى بيت المقدس التي كانوا يخشونها⁽³⁾ .

ويبدو أن البابا جريجوري السابع (Gregory VII) 465-478 هـ/1073-1085م) هو الذي صاغ فكرة الحرب المقدسة في شكلها النهائي ، فأحدث نقلة نوعية في موقف المسيحية من الحرب ، فقد حاول استقطاب الفرسان من أجل الحرب المقدسة وتسخيرها في خدمة الكنيسة مستخدماً لتحقيق هذ الغرض المصطلح القديم (قوات المسيح) و(جيش المسيح)، ويقصد به رجال الدين الذين يحاربون بوسائل سلمية ، كما استخدم مصطلح (قوات القديس بطرس)، ثم تطور هذا المصطلح بحيث تعلق بمحاربين مسلحين تابعين للكنيسة ، وبذل التحلل لكل من يلقي مصرعه في المعركة من أجل الصليب ، ومن الواضح أن الفكرة التي دعا إليها كان محورها الحرب المقدسة الهجومية ، وعندما ربط بينها وبين الحرب ضد المسلمين كان يجسد الفكرة القائلة بضرورة استخدام القوة لحماية شعب المسيح من الاعداء بوصفها سبباً عادلاً لشن الحرب⁽⁴⁾ .

لذلك عقد الأوربيون الأمل على قيام البابا جريجوري السابع بتنفيذ خطة حملة صليبية الى الشرق يقودها بنفسه من أجل مساعدة الامبراطورية البيزنطية ضد الاتراك السلاجقة ومحاربة المسلمين الذين يهددون القسطنطينية ، فدعا كل الراغبين بالدفاع عن العقيدة المسيحية وعلى رأسهم الكونت وليم الأول أمير بوجوني وهنري الرابع امبراطور الامبراطورية الرومانية المقدسة(499-448هـ/1056-1105م) الى الاشتراك في الحملة المرتقبة ، وساد الاعتقاد في أوروبا بأن فكرة توحيد الكنيستين الشرقية والغربية بعد الانشقاق الكبير بينهما الذي حدث في سنة 446هـ/1054م كان وراء تخطيط البابا ، وهي

1- عن اهتمام فرنسا بالحروب الصليبية في المشرق ودورها فيها . ينظر: مصعب حمادي نجم الزيدي ، الحروب الصليبية في أعمال المؤرخين الفرنسيين حتى نهاية القرن العشرين – دراسة في التدوين التاريخي(بحث منشور في مجلة لآرك للفلسفة واللسانيات والعلوم الاجتماعية / كلية الآداب، جامعة واسط:2019م)، ج2، ص93-117 .

2- للمزيد من التفاصيل حول الموضوع أعلاه . ينظر: محمد محمود النشار، « البابوية وفرنسا على مسرح الحروب الصليبية في الأندلس في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي»، ضمن أعمال ندوة الإطار التاريخي للحركة الصليبية (اتحاد المؤرخين العرب، القاهرة:1996م) .

3- هانس ابرهارد ماير ، تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة وتعليق: عماد الدين غانم(ليبيا:1990م)، ص39-38 ؛ ممدوح حسين وآخر ، الحروب الصليبية في شمال أفريقية وأثرها الحضاري (الكويت:1998م)، ص14-13؛ طقوش ، تاريخ الحروب الصليبية، ص27-26 .

4- رنسيان، تاريخ الحروب ، ج1، ص148 ؛ انتوني بردج ، تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة: أحمد غسان سباتو ونبيل الحيرودي(دمشق:1985م)، ص44-43 .

المرّة الأولى التي ظهرت فيها فكرة توجيه حملة إلى الحوض الشرقي للبحر المتوسط بزعامة البابا، غير أن الظروف الحرجة التي مر بها البابا وصراعه مع السلطة الزمنية حول مسألة تنصيب الأباطرة ولاسيما الألمان حال دون تنفيذ خطته وتحقيق هدفه حينذاك⁽¹⁾.

تلاها قيام خلفه البابا أوربان الثاني بتنفيذ خطة سلفه وأضاف إليها فكرة تحرير بيت المقدس من أيدي المسلمين، وعلى الرغم من أن كبار المسؤولين عن الكنيسة لم ينكروا القتال، فإن المفكرين من ارتاع للحرب علماً أن الكنيسة قد تأثرت في موقفها من الحرب الصليبية بحركة سلام الرب التي اتخذتها وسيلة تدافع بها عن نفسها في ظل الحروب الداخلية والفوضى التي شهدتها أوروبا عقب انهيار الدولة الكارولنجية⁽²⁾.

وشهد عهد الإصلاح الديني خلال القرن المذكور فسخ المجال أمام البابوية لاستعمال القوة عن طريق تنظيم حملات عسكرية لغرض عقاب الخارجين على السلام، وقد عدتها حروباً مقدسة من أجل خدمة الكنيسة وتحت رايتها، فكان ذلك سلاحاً سياسياً مهماً في أيدي رجال الكنيسة، وشكلت خطوة فاعلة نحو بلورة الحرب الصليبية لأن البابوات الإصلاحيين⁽³⁾ بدأوا يفكرون جدياً بإرسال حملة إلى الشرق الإسلامي ودفعتها نحو موقف جديد من الحرب⁽⁴⁾ فعلى سبيل المثال لا الحصر تولى البابا ليو التاسع (440-446/هـ-1048-1054م) الذي يعد من أوائل البابوات الإصلاحيين قيادة جيش ضد النورمان في جنوب إيطاليا سنة 445هـ/1053م، وكانت الكنيسة تضعهم في درجة قريبة من الكفار، وقد وعد المشاركون الألمان في الحملة بغفران جرائمهم واعفائهم من عقوبة التوبة، كما حاول البابا نيقولا الثاني (450-453/هـ-1061-1058م) حل المشكلة النورمانية نهائياً فتحالف مع زعيم النومان ريتشارد أمير مقاطعة كابوا وروبرت جويسكارد، واقترح هذان الزعيمان على البابا في مقابل ذلك أن يقطعهما أملاكها، فوافق البابا على المقترح وأصبحت تابعين للكنيسة، وترتب على الاتفاق تأدية الخدمة الحربية لسيد القاطعي وهو البابا، وبموجب ذلك حصل على موافقة الكنيسة للقيام بالحرب المقدسة بصيغة دينية ضد الكفار، وبذلك حصلت الكنيسة على قوات جيش الاقطاع مما وفر الحماية الكافية لدولة الكنيسة التي كان بإمكانها زج هذه القوات في حرب المقدسة، وشكلت هذه الأحداث سابقة عملية نضجت من خلالها فكرة الحرب الصليبية⁽⁵⁾.

1- قاسم، ماهية الحروب، ص38-37؛ طقوش، تاريخ الحروب، ص27.

2- طقوش، تاريخ الحروب، ص28-27.

3- البابوات الإصلاحيين هم حسب الترتيب الزمني: ليو التاسع ونيقولا الثاني والكسندر الثاني وجريجوري السابع.

4- نورمان كانتور، التاريخ الوسيط، قصة حضارة البداية والنهاية، ترجمة: قاسم عبدة قاسم (القاهرة: 1981م)، ج2، ص342-335؛ قاسم، ماهية الحروب، ص42-41.

5- ماير، تاريخ الحروب، ص14-12؛ طقوش، تاريخ الحروب، ص30-29.

وعندما أوشكت الألف الأولى على الانتهاء انتاب الناس في أوروبا شعور بدنو القيامة فكثرت حملات الحج من الغرب الأوربي بأعداد كبيرة دعت بعض المؤرخين الى القول بأن الحملة الصليبية كانت استمراراً لحملات الحج الكبرى المألوفة لا يفرقها عن غيرها سوى كثرة العدد والعتاد⁽¹⁾ ولكن كيف لأحد أن يعد الحروب الصليبية في الشرق الإسلامي حملات حج كما قال أصحاب هذا الرأي ولاسيما أن الصليبيين جاؤوا بجيوش جرارة تزعمتها قيادات سياسية ودينية حملت معها الكثير من الأسلحة والعتاد ، ومن المعروف أن حملات الحج تكون حملات سلمية لا يحمل فيها الحجاج معهم سوى ما يدفع عنهم مخاطر الطريق أثناء السفر⁽²⁾ .

وقد ازدادت طموحات البابوية السياسية قوة في منتصف القرن الخامس الهجري /الحادي عشر الميلادي عندما قام البابوات المصلحين بإصلاحات داخلية مهمة أسهمت في تقوية الكنيسة ونافست الامبراطورية في السيطرة على شؤون غرب أوروبا⁽³⁾ وكادت أن تقوم مقام الدولة في كل كبيرة وصغيرة حتى أن بعض الملوك كانوا في كثير من الأحيان لا يقطعون أمراً إلا بمشورتها وإرادتها⁽⁴⁾ كما اضطلعت الكنيسة بمهمة إدارة شؤون العبادة والتعليم والزواج والقضاء وتأسيس الكنائس والدعوة للحروب الصليبية وقيادتها ، ولم يكن بوسع الكنيسة النهوض بهذا الأعمال الكبيرة إلا إذا توافرت لها المصادر المالية اللازمة⁽⁵⁾ .

والجدير بالذكر هنا إنه لم يكن في الغرب الأوربي مؤسسة أخرى تمتلك السلطات والصلاحيات والوسائل والامكانيات الروحية والمادية تمكنها من الدعوة الى الحرب الصليبية ضد العالم الإسلامي سوى المؤسسة الكنسية البابوية ، فكان للكنيسة دور فاعل في أمرين ، الأول : توجيه الحركة الصليبية، والثاني: السيطرة عليها باسم الدين فهي التي دعت إليها وروجت لها فضلاً عن تكريسها الجزء الأكبر من أموالها ووقتها وجهدها للدعاية لها⁽⁶⁾ .

1- عاشور، الحركة الصليبية، ج1، ص24-22 .

2- عبدالله عبد الرحمن الربيعي ، أثر الشرق الإسلامي في الفكر الأوربي خلال الحروب الصليبية(الرياض:1994م)، ص29-28 .

3- قاسم ، ماهية الحروب ، ص37 .

4- باركر، الحروب الصليبية ، ص24-23 ؛ يوسف ، تاريخ العصور الوسطى وحضارتها (الاسكندرية:1984م)، ص32-31 ؛ يوسف، «الدافع الشخصي في قيام الحروب الصليبية »، ضمن كتاب دراسات في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى(الاسكندرية:1988م)، ص34-33 .

5- رأفت عبد الحميد ، تاريخ العصور الوسطى وحضارتها (القاهرة:2001م)، ص69 ؛ سيمون لويد ، « الحركة الصليبية 1096-1274»، ضمن كتاب تاريخ الحروب الصليبية ، تحرير رايلي سميث ، ترجمة وتقديم وتعليق: قاسم عبدة قاسم(القاهرة:2008م)، ج1، ص89-91 .

6- نها عوض العجمي ، الحملات الصليبية على مصر وبلاد الشام (494-690هـ/1291-1095م) – التمويل والإمداد(الهرم:2015م)، ص30 .

ب. العامل الاقتصادي

احتل العامل الاقتصادي هو الآخر مكانة متميزة بين عوامل قيام الحروب الصليبية ، وقد تجسد هذا العامل في الخطاب الرسمي للبابا أوربان الثاني في مجمع كليرمونت سنة 488هـ/1095م – الذي سيرد الحديث عنه في الفصل الثاني – إذ أشار البابا حينذاك أن أرض كنعان تفيض لبناً وعسلًا ، كما ذكر أن بلاد الغرب الأوربي كانت تعاني من أوضاع اقتصادية سيئة وظروف معاشية قاسية ولاسيما فرنسا بسبب حدوث المجاعات وكثرة الحروب المريرة بين الاقطاعيين مما أدى الى ظهور الكثير من المعدمين والفقراء فضلاً عن تشجيع جمهرة من التجار الايطاليين ولاسيما تجار مدن البندقية وجنوا وبيزا على قيام الحروب الصليبية في الشرق من أجل تحقيق أهداف ترتبط بمصالحهم الاقتصادية والتجارية⁽¹⁾ ولاسيما بعد أن وجدت الجمهوريات الايطالية الساحلية نفسها ملزمة بالمشاركة في هذه الحروب بسبب ما شعرت به سابقاً وحاضراً من تهديد المسلمين لمدينتها البحرية ، بعد أن قام المسلمون في حقبة سابقة بمهاجمة جنوا والحقوا بها خسائر جسيمة وغنموا منها سنة 395هـ/1004م ، وهذا ما تعرضت له بيزا أيضاً في سنتي 395هـ/1004م و402هـ/1011م⁽²⁾ ومما يجدر ذكره هنا أن جمهوريات المدن التجارية الإيطالية كانت لديها العاطفة الدينية أقل من حبهم للمال والتجارة ، لذلك كانوا لا يلتزمون بقرارات الحرمان التي قامت البابوية بفرضها على كل من يتعامل مع المسلمين ولاسيما عند وصول الحملات الصليبية التي قامت بإرسالها الى الساحل الشامي ولم تحقق أهدافها⁽³⁾ فضلاً أن المدن المذكورة لم تكن تقدم المساعدات الكبيرة للصليبيين في احتلال بلاد الشام واخضاع المدن الساحلية بوازع ديني بل جرياً وراء مصالحها الاقتصادية الخاصة وذلك في مقابل معاهدات عقدتها مع القوى الصليبية في بلاد الشام وحصلت بمقتضاها على امتيازات اقتصادية مهمة آنذاك⁽⁴⁾ .

كما إن الكثير من الجماعات والأفراد الذين أيدوا تلك الحركة وقدموا من الغرب الى الشرق للمشاركة فيها لم يكن هدفهم خدمة الصليب أو حرباً ضد المسلمين وإنما كان جرياً وراء المال وجمع الثروات واقامة مستعمرات ومراكز ثابتة لهم في بلاد المسلمين بغية استغلال موارده والمتاجرة فيها والحصول على أكبر قدر من الثروة واستنزاف مقدراتها الاقتصادية⁽⁵⁾ ويتبين من هذا الإجراء الاقتصادي

1- حلاق ، العلاقات الحضارية ، ص 170 .

2- كروسيه ، الحروب الصليبية ، ص 32 .

3- أحمد عبدالله ، « السلع التجارية في الساحل الشامي في القرنين 12،13م»، ضمن الكتاب التذكري بعنوان بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى لتكريم أ. د. زبيدة عطا، تحرير: محمد مؤنس عوض (القاهرة:2013م)، ص 326 .

4- عادل زيتون ، العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى(دمشق:1980م)، ص130-129 ؛ وفاء جوني ، الحياة الإدارية والسياسية في الإمارات الفرنجية الصليبية في بلاد الشام (رسالة ماجستير غير منشورة مقدمة الى كلية الآداب والعلوم الإنسانية/جامعة دمشق:1989م)، ص 23 .

5- عاشور ، الحركة الصليبية، ج1، ص37-36 ؛ سعيد محمد غريدة ، المعاملات التجارية في مدينة بيزا الايطالية خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين(مجلة العلوم والدراسات الانسانية، جامعة بنغازي ، ليبيا : 2015م)، ع7، ص1.

والذي مارسه الإيطاليين على وجه الخصوص الأثر الكبير للدافع الاقتصادي في اندلاع الحرب الصليبية منذ اللحظات المبكرة لظهور المشروع الصليبي خلال تلك الحقبة الزمنية من التاريخ الوسيط . ولذلك نجد أن الصراع بين الغرب والشرق في نظر ثومسن أحد أبرز المؤرخين المختصين بالتاريخ الاقتصادي في العصر الوسيط ، يشكل أول محاولة للأمم الأوروبية وراء حدودها ، إذا افتتحت هذه الحروب حركة جديدة في تاريخ أوروبا ، فالتوسع الاقتصادي والحركة الاستعمارية الكبرى لاوروبا فيما وراء البحار خلال حركة الاستكشافات وبعدها من القرن السابع عشر حتى القرن التاسع عشر الميلادي ماهي إلا استمرار لحركة بدأت بوادرها مع انطلاق الحروب الصليبية⁽¹⁾ والجدير بالذكر أن أهم الأسباب التي كانت تؤثر سلباً على الجانب الاقتصادي هي حالة الاستقرار السياسي لأي بلد ، وقبيل الغزو الصليبي لبلاد الشام شهدت بلاد الشام واقليم الجزيرة الفراتية الكثير من الصراعات بين حكامها ، وكانت معظم هذه الصراعات في النصف الأخير من القرن الهجري الخامس/الحادي عشر الميلادي⁽²⁾ .

ج. العامل الاجتماعي

تألف المجتمع الأوربي في العصور الوسطى من ثلاث طبقات ، الأولى : طبقة رجال الدين وتضم الكنسيين والديرين ، والطبقة الثانية : المحاربين وهم النبلاء والفرسان ، أما الطبقة الثالثة فهي طبقة الفلاحين من الأبقان والعبيد (رقيق الأرض)، وكانت الطبقتان الأولى والثانية أقلية وتمثل في مجموعها السلطة الحاكمة من وجهة النظر السياسية والارستقراطية السائدة من وجهة النظر الاجتماعية ، في حين أصبحت طبقة الفلاحين تمثل الغالبية العظمى المغلوبة على أمرها والتي كان يقع على أفرادها العمل بمشقة كبيرة لكي يسدوا حاجة الطبقتين المذكورتين⁽³⁾ .

وكانت تلك الطبقات الأساسية الحاكمة في المجتمعات الأوروبية تستغل الطبقات الدنيا التي كانت تعيش حياة ملؤها الشقاء والتعاسة في ظل النظام الاقطاعي الاستغلالي ، وكان معظم أولئك الفلاحين من العبيد والأبقان الذين ارتبطوا ارتباطاً وثيقاً بالأرض التي يعملون عليها وقضوا حياتهم محرومين من أبسط مبادئ الحرية الشخصية ، وكل ما يجمعه القن يعد ملكاً شخصياً لسيده الاقطاعي . ولذلك كان الفلاح والقن والعبيد يفضلون الحياة والاقامة في أية منطقة في العالم على الاقامة في ظل الشقاء والعبودية في النظام القائم في أوروبا حينذاك⁽⁴⁾ .

1- J. W .Thompson, Economic and Social History of the Middle Ages,(New York:1959),Vol.1.p.397 .

2- حازم أحمد الحلاق ، الأوضاع الاجتماعية والعلمية والدينية والاقتصادية والسياسية للمشرق الإسلامي قبيل الحروب الصليبية(334-490هـ/1-97-945م)،(رسالة ماجستير غير منشورة مقدمة الى كلية الآداب/الجامعة الإسلامية ، غزة:2014م)،ص119 .

3- عاشور ، أوروبا العصور الوسطى التاريخ السياسي،ط5(القاهرة:1972م)،ج2، ص63 ؛ الحركة الصليبية ،ج1،ص38-37 .

4- طقوش ، تاريخ الحروب ،ص34-33 ؛ حلاق ، العلاقات الحضارية ص170 .